الخوف لايمكن أن يكون جزءا من ثقافة ناضجة . وقديما حارب الصوفية مبدأ الخوف ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا المودة جزءا من ضمير الفرد العادى . وقديما جعل شعراؤنا أبطالهم مجامع الخوف الذى لايتقى ، وربط المثل الشعبى بين سلامة النفس وذاك الخوف . وقديما لاحظ المثل أيضا أن المرء يضطر إلى أن يحب عدوه . وها هنا يبلغ الخوف ذروته . وقديما شغل الباحثون فى اللغة بأساليب التوكيد التى تعصم من التردد والخوف . ولكننى مضطر إلى أن أمضى عن هذا الحديث ، وأن أسوق لك قطعة من حديث المازنى :

قال المازنى كنت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرى الذى لم أكن أقدر أن يطول ، وكان مسكننا يومئذ بيتا من بيوت الغز ، ويظهر أن هذا البيت كان لرجل دائم الوجل لايزال يتوقع العدوان ويحذره ؛ فقد كانت بوابته كبيرة كبوابة المتولى ، وكان له رتاج غليظ . أما المدخل فطريق ملتو وفيه مخابىء ومكامن ، والمرء لايستطيع أن يبصر كفه من شدة الظلمة . وكنا نضع مصباحا ، ولكنه لم يكن يضيىء شيئا .

وفى الصحن شجرة جميز عتيقة عظيمة كثيفة الغصون تسد النوافذ ، وتمنع النسيم أن يروح عن نفوسنا فى الصيف . وكثيرا ما كنت أستغنى - فى نزولى - عن السلم فأهبط من النافذة الى الأرض على هذه الجميزة . وربما طاب لى المقام بين الأغصان فأقعد كالقرد .

وللبيت نوافذ مطلة على الطريق من النوع الذى يسمونه مشربيات . . وإذا عرفت أن للبيوت المقابلة مشربيات أيضا ، وأن الطريق حارة ضيقة ، وأن هذه المشربيات من الجانبين تتدانى ، وتكاد تتلاصق ، فهل فى وسعك أن تصدقنى حين أقول إن الحارة كانت أشبه بسرداب أو نفق تحت الأرض . . ولا أذكر أنى فى ثلاث سنوات طويلة أبصرت قط بائعا متجولا يدخل فيها ، ودع الحمير وغيرها من دواب الحمل فقد كانت إذا مرت بالحارة تدير وجهها الى الناحية الأخرى .

وكان الأطفال إذا أرغموا على الخروج فى نهار الناس مشوا فى حذر ، ومفاصلهم تتخلخل ، وركبهم تصطك حتى إذا بلغوا رأسها وضعوا ذيلهم فى أسنانهم ، وخرجوا منها كالمدفع ، فتهز الحارة رأسها وتقول حسن ، وهل نويتم ألا ترجعوا حتى تفرحوا بالخروج ؟